على حافة الراء

خديجة السنوسي – ليبيا

عندما ساقها القلم أولا نحو تلك البلاد الآمنة ، بقيت ثلاثة شهور ونيف لم تتح فيها لنفسها فرصة التعرف على أحد، كانت منشغلة تماما بذلك البحث الذي قدمت لأجله من آلاف الكيلومترات، من مسافات بعيدة من وراء النهر.

بعد تلك العزلة الاجتماعية التي فرضها عليها الظرف إلا من بعض المساءات التي كانت تضن بها الأيام فتكون رذاذا يربت على قلبها المثخن بالجراحات والآمال المستعصية؛ جراحات الوطن الذي جاءت منه والأهل والوالدين المسنين لا حول لهما ولا قوة يسمعان أصوات القصف فبنتفضان كعصفورين بللهما القطر. لم تغب عن ناظريها صورتهما عندما كان يصل إليهما صوت انفجارات الصواريخ بالمعسكر المقابل للبيت. صحيح إن تلك الضربات كانت دقيقة لكن قلبها وإحساسها بما تفعله الأصوات بأبويها كان أكثر دقة ورقة.

غادرت زهرة البلاد وهي بين نارين: نار ما يحدث في البلاد وأهلها القاطنين هناك، ونار تحقيق طموحها في مثل هذه الظروف.

وفي ليلة فمرية ربيعية كان القمر فيها مغريا للخروج قرأت في إحدى المواقع بأن ندوة ثقافية ستقام في ذلك المكان القريب، أتبعت شغفها وحبها لمثل هذه اللقاءات، لم تعبأ كثيرا بمظهرها الخارجي ولا لون عينيها والشفتين، فلا أحد

يعرفها وليست تعرف أحدا سوى من كانت أسماؤهم تكتب على بعض المؤلفات التي كانت تهمها وتختص بموضوع دراستها.

وصلت على الموعد وجلست على كرسي في الحلقة الثالثة من الكراسي حول المائدة المستديرة بتلك الندوة.

بعد وقت من متابعتها وإصغائها لمواضيع مختلفة تم تناولها في تلك الجلسة؛ رن هاتفها الشخصي مما اضطرها للخروج من أقرب باب بالقاعة للرد على المكالمة الواردة إليها، لم يكن باستطاعتها الرد داخل القاعة للهدوء السائد إلا من صوت أحد المعنيين.

رجعتْ بعد أن أنهت مكالمتها لتجد الكرسي الذي كانت تجلس عليه قد شُغِل بأحدهم، ووفقا لنظرة عامة شاملة ألقتها على المكان، فإنها لم تجد مكانا خاليا فخرجت ثانية من حيث دخلت أملا في أن يخرج أحدهم فتدخل مكانه وتجلس بنفس الطريقة التي جلس بها الرجل.

ـ أيمكنني الجلوس هنا؟

قالت للمشرفات الجالسات بالممر قرب القاعة وأشارت لكرسي شاغر.

ـ نعم تفضلي بكل سرور.

لم يخرج الرجل ولم يخرج غيره واستاءت لعدم تمكنها من إكمال ما أتت لأجله.

ـ ماذا؟ كيف لم أنتبه؟!! قالت لنفسها عندما قرأت ما كتب على ورقة علقت

على باب مغلق لقاعة مجاورة؛(أمسية شعرية من الساعة ٧ ـ ٩) وكان اليوم والتاريخ مكتوبان أيضا، فعرفت إن الأمسية تقام حاليا داخل القاعة.

دخلت القاعة التي بها الأمسية بهدوء وجلست بالكرسي الأقرب للباب حرصاً على أن لا يحدث دخولها أي لفت انتباه أو انقطاع الانسجام الشعري الذي كان يسود القاعة، فمثل هذه الأماكن والمناسبات لا يرتادها إلا من بهم شغف حقيقي بها.

جلست وإذا بكلمات تلامس غضاضة قلبها..

ـ يااااه مازال الشعر بخير ومازالت اللغة العربية بألف خير.

وما انفكت تقول هذا في نفسها وإذا بالشاعر يختم نصه وإذا بمدير الأمسية يختتم الأمسية.

وجدت نفسها ترقبه من بعيد مع المصطفين لأخذ صورة جماعية وتتحين انتهاء التصوير لتسلم عليه وتحييه، وفي طريقه للخروج من القاعة ألقت عليه التحية وكفت الأرض حينها عن الدوران.

ـ مساء الخير

ـ مساء النور

ـ كنت رائعاً ومختلفاً

ـ شكرا .. تسلمي

ـ أنا ..... من .....

ـ أووووو أفريقيا

ـ نعم . واضح أنك مهتم بأفريقيا.

ـ نعم

حال ذلك الضجيج الذي يعقب انتهاء الحفلات والأمسيات من مواصلة الحديث، لكنها استدركت: عفوا ما اسم شاعرنا الجميل؟

ـ .....

تداركت أيضاً:

ـ كيف لي أن أتواصل معك؟ فأنا سأغادر قريبا.

ـ نعم نعم هذا اسمي ورقمي وسنتواصل.

كل ما كان في يال هذه الشاعرة هو التعرف على هذا الشاعر الذي أعجبها شعره دون شكله الذي كان أكثر من عادي جدا، ولم تكن تعرف إنه مشهور جدا على رغم صغر سنه وأن صدى شعره مدوٍ إلى هذا الحد ؛ إلا بعد أن ساقها الفضول للبحث عن اسمه، فكانت الدهشة أكبر.

تواصلا والتقيا في موعد قريب وكانت الصدف أو الأقدار تدهشهما؛ فقد جمعهما الشعر والتخصص وحتى الكلية التي أتتها لتدرس بها.

استمع كل منهما لشعر الآخر وكلام وفكر ورؤى الآخر وتجاذبت العقول والأرواح.

فجأة ولأسباب لم تكن تعلمها هي ولضائقات مرَّ ويمر بها ولم يكن قد أفصح عنها؛ ضاق صدره ولم تعد له رغبة في فعل شيء أو مقابلة أحد أو حتى الرد على هاتفه...

كل يوم كان يمر عليها هو يوم يذكرها بقرب موعد المغادرة فلا تتمالك نفسها وتشتد رغبتها في الانتصار على هذا الوحش وحش الوقت، فكانت تكثف اتصالاتها به علها تحصل على إجابة منه أو تفهم من صوته ماذا حلَّ به؟!!!

دون جدوى.

ـ أكان ممثلا بارعا؟!! أم كنتُ مُحبة غبية؟!

سألت نفسها أيضا:

ـ كيف لمن يكتب عن الإنسان والحرية وعن المرأة أيضاً أن لا يكون إنساناً متأثراً بربع أو عُشر ما كتب؟!!!

كانت محاولات الوصول إليه كثيرة وكانت أسباب اختفائه غامضة جدا وكان رقمها يتسول صوتا أو رسالة منه ولكن دونما فائدة.

لم تكف الأرض عن الدوران وتعاقب الجديدان واقترب وحش الوقت وموعد السفر فكتبت:

صباح الخير...

لم أرد إزعاجك بقدر ماكان حنين ما بداخلي يلح علي أن أكتب لك.

قريبا سيغادر هذا الرقم الشحاذ عتبات هاتفك.

سترتاح من رسائل الصباح والمساء وأنينها، لن تشاهد أثر خطواته بطريقك ولن تجده في طريقك ينتظرك منكسرا فتزيحه لتفسح الطريق لرقم آخر تطلبه، أو تلقي إليه ببعض الفتات ليأكله على حافة الألم هناك، أو ربما صفعته بسبابتك وأشرت له بها نحو الشمال أن اغرب عن وجهي.

هذا الشحاذ المسكين دونك، الفقير إليك، كان يحيك كثيرا، نعم هو من أخبرني بهذا وشاهدت ذلك فيه، صورك المجرات في سمائه وحروفك الخطوات غلى أ راضيه، مسكين هو إنني أسمع حشرجته الآن، كان يبلع تلك الأصوات المصاحبة لألم الفراق لكنها اليوم غلبته...

امممممم آآآآآآآآآ عووووووووووو ... إنه الفقد

آتت هذه الرسالة أكلها بأن تلقت رداً وعدها فيه بأن يأتي لوداعها ويتمنى لها السلامة في رحلتها الآيبة، وحصل فعلا.

عادت إلى بلدتها تحمل ثقل الذكريات وارتعاشاتها، تتمنى أن يُسمح لها بأن تجهر (زملوني زملزني)لكن هيهات لامرأة أن تصدح بوجع ذكريات الحب في تلك البلدة.

عادت وارتعدت لأيام وتعايشت في تلك الهوة التي أحدثتها معرفتها للحب والتجوال والحياة. عادت وبعد أيام دمرت الحرب المطار وأضحى التنقل مغامرة والحياة في تلك البلدة مجازفة بالعمر، واستمعت من جديد لأصوات القذائف والصواريخ وجميع أنواع الأسلحة، عادت أيضاَ لارتعاشة أبويها أيضاَ فأرسلت له:

حدث في مثل ذلك (الجب):

(ودعتكم والأرض كيف توقفت عن دورتيها؟ هكذا التوديع!!

آهِ أيها الرفيق، كلما فكرتُ في عواقب الوداع خفت.

لأول مرة أشعر بهذا النوع من الخوف؛ خوف على نفسي وخوف عليك.

ليتني أعرف ذلك الرجل الذي جلس في مكاني عندما خرجت من تلك القاعة الهادئة، لأعود فلا أجد مقعداَ أجلس عليه، مما اضطرني لمغادرتها إلى قاعة أخرى كانت تختتم جلستها بك.

ليتني أعرفه لكنت كافأته وأتيته بعد شهر لألومه، وربما رفعت عليه قضية أن ألقاني في غيابات حُبٍّ لا سيارة يمرون به.

ويل للحروب بما تفعله بالمحبين قبل الجنود.